القوة الفردية
هى أساس القوة الاجتماعية

[رسالة مهداة إلى معالى الأستاذ عبد الحميد عبد الحق وزير الشؤون الاجتماعية]

للدكتور زكى مبارك

فى العام الأسبق نشرتُ مقالات عن الفقراء والأغنياء تقوم على أساس القول بأن الفقر مرض ولكل مرض أسباب ، وأن الغنى عافية ولكل عافية أسباب

وقد قوبلت تلك المقالات بالاستنكار من كل جانب ، وعدّها الناس تحاملاً على الفقراء ، وتلطفاً مع الأغنياء ، مع أنى كتبتها لوجه الله والحق ، ولم يكن هناك باعث غير الرغبة الصحيحة فى عرض آراء قد اقتنعت بصحتها كل الاقتناع

ثم مرت شهور طوال وأنا أفكر فى أسباب غضب الجمهور على تلك المقالات ، فلم أجدها ترجع إلا إلى سبب واحد : هو مجاراة النزعة الموروثة فى الترفق بالفقراء ، والغض من أقدار الأغنياء ، فقد مرّت أزمان والناس لا يقرأون غير كلمات معسولة فى الدعوة إلى الرأفة والرحمة والبر والحنان فيما يتصل بمعاملة الفقراء ، وكلمات مسمومة فى إنذار الأغنياء بعواقب الحرص على كنز الأموال

وأقول إن هذه الألوان الكلامية كانت تليق بزمان غير هذا الزمان ، يوم كانت الكلمة اللطيفة تنفع الفقير بعض النفع لما فيها من المواساة ، ويوم كانت الكلمة القاسية تصدُّ الغنىّ عن المبالغة فى طلب الجاه والمال

أما اليوم فقد تغيرت مذاهب الحياة أشد التغير ، ولم يبق للكلام المعسول أى قيمة فى مواساة الفقراء ، ولم يعد للكلام المسموم أى وزن فى تقويم الأغنياء

نحن فى زمن الحقائق ، وليس للكاتب المرائى فى هذا الزمن مكان .

نحن فى زمن الحقائق ، والحقائق تنطق بأن الفقر مرض ، وأن الغنى عافية . والمريض الذى لا يبحث عن أسباب مرضه ليتجنبها هو مريض فى طريق الموت

يجب أن نقنع كل فرد بأن الغنى طوع يديه إن أراد

يجب أن نقنع كل فرد بأن الوصول إلى الرزق ليس من المشكلات ، فجهاد ساعتين اثنتين من كل يوم يكفى للظفر بالزاد الذى يغنى عن سؤال الناس

وميادين الحياة فى كل أرض تتسع للعيش ، العيش الذى يُطلَب بالعمل لا بالسؤال

إن الفقر هو انعدام الرزق ، والغنى هو وجود الرزق

أقول هذا لأدفع وهما من أسخف الأوهام ، وهو الوهم الذى يقول كاذباً بأن الأغنياء هم الذين يملكون القصور والبساتين ، وأن الفقراء هم الذين لا يملكون قصوراً ولا بساتين

العامل الذى يكسب خمسة قروش فى اليوم ليدخل على أهله فى المساء ومعه القوت الحلال من الخبز والبصل والفول هو من كبار الأغنياء

والخادم الذى يصدُق فى بيت مخدومه ويقدّم لأهله فى كل شهر عشرات القروش هو من كبار الأغنياء

الغِنَى الحق هو انعدام الاحتياج إلى الصدقات ، فما تجوز الصدقة إلا على من يُحرَم القدرة على الكسب الشريف

ومن قال غير هذا القول فهو كاتب يتملق المجتمع ويطمع فى شهرة محرّمة ، والشهرة كالرزق فيها حرام وحلال

إن النباكى أو البكاء لن ينفع الفقراء بشىء ، ولو جُمعت دموع الباكين من الكتّاب والشعراء والخطباء لكانت أقل من أن تملأ كوباً ينقع غلة فقير ظمآن

أدباؤنا لن يؤدوا رسالتهم الاجتماعية إلا يوم يستطيعون إقناع الكناس بأنه يؤدى مهمة وطنية

لو كان فى مصر أدبٌ اجتماعىٌّ صادق لكان من ثماره أن يتغنى الكناس بفضل مكنسته وهى من أظهر شواهد المدنية

ولكن الكناس يجد من أدباء مصر من يبكى على مصيره بكاء التماسيح

الغبار يؤذى الرئتين فيورث السل

كذلك قال الأطباء

فهل سمعتم أن كناساً مات بالسل ؟

إن الله يحمى الكناسين ، لأنهم يؤدون خدمة عمومية ، ولم يبق إلا أن يفهم الكناسون هذا المعنى ، ليدركوا أنهم جنود جنّدهم الوطن لخدمة الإنسانية

وقد طال تباكى الأدباء على الفلاحين ، فهل فى أدبائنا من يفهم أن الفلاحين فى غنًى عن تباكيهم المصطنع ؟

قالوا إن الفلاح يبيت مع الجاموسة فى حظيرة واحدة ، وفاتهم أن المبيت مع الجاموسة أطهر وأشرف من المبيت فى غرفة مفروشة بأحد المنازل التى يعرفها المتأنقون من أدباء هذا الجيل الظريف ! !

إن حياة الفلاح فى صحبة مواشيه حياة تفيض بالروح والوجدان ، فهو ينظر إلى مواشيه برفق يعادل نظره إلى أبنائه الأعزاء ، وهو يسهر حول حظيرة ثوره حين يمرض ، كما يسهر حول فراش ابنه حين يمرض ، وهو لا يسمح بذبح ماشية مريضة إلا طاعة لعقيدة توحى إليه أن من الإساءة للحيوان الأليف أن يموت موت « القطيس » وكذلك تكون المسارعة إلى ذبح الحيوان المريض باباً من التكريم ، لا ضرباً من الاستغلال

على هذا النحو من الفهم كانت الحياة فى الريف ، فقد رأيت ناساً يسهرون ومعهم مصباح حول ثور مريض ، كأنهم يتوهمون أن المصباح يؤنسه بعض الإيناس . وتلك صورة تشهد بصدق الفطرة المصرية فى إدراك منافع الطير والحيوان

والذى يفهم الريف حق الفهم يدرك السبب فى عبادة المصريين القدماء للأنعام ، وهذه العبادة فهمت على غير وجهها الصحيح . فما كان الغرض أن يكون البقر آلهة يُعبَدون من دون الله ؛ وإنما كان الغرض أن يكون تقديس البقر نوعاً من صيانة النعمة الربانية ، على نحو ما يصنع الفلاح المسلم حين يكره ترك فتات الخبز فى الطريق ، لأنه يرى من كفر النعمة أن تداس بقايا الخبز بالأقدام

إن البقرة والثور من العناصر الأصيلة فى الثروة المصرية ، ومن أجل هذا المعنى كانت هاتور وكان أبيس من المعبودات فى زمن الفراعين . وعن مصر أُخِذت عبادة البقر فى الأقطار الهندية ، وتلك وثنية تستحق العطف ، إذا فكرنا فى سببها الصحيح

وقد حدثنى سعادة الأستاذ طه الراوى أن الحجاج كان يحرّم ذبح البقر ، وأنشد أبياتاً قالها العراقيون فى السخرية من هذا التحريم ، فممن أخذ الحجاج ذلك البدع الطريف ؟

هل أخذه عن مصر ؟ هل أخذه عن الهند ؟

لا هذا ولا ذاك ، وإنما استوحى المنافع الحقيقية للبقر فى بناء العمران

ونحن فى هذا العهد نسرف فى أكل اللحوم إسرافاً يحمل الحكومة على تقييد بيع اللحوم ، وإن تمادينا على هذه الحال فستزول المعانى الشعرية التى يحسها الفلاح فى رعاية مواشيه ، وسيمسى الفلاح وهو آلة فى أيدى الجزارين !

فهل يجوز بعد هذا الكلام أن يتمادى الكتاب المتحذلقون فى تعيير الفلاح بأنه ينام فى حظائر الأبقار والجواميس ؟

إن لله حكمة فى أن يجعل لنا أصدقاء نافعين من الطير والحيوان ، أصدقاء لا يطالبون بشىء ، ولا يثورون على الحرمان !

كان أحد ملوك فرنسا يقول إن الذى يهمنى أن يعم الرخاء بحيث يجد كل فرنسى دجاجة لمائدة يوم الأحد . . . والرخاء عندى أن يكون فى دار كل فلاح بقرة أو جاموسة ، فمتى تذيع هذا المعنى بأقلامنا ؟ ومتى نترك تعييره بمصاحبة المواشى ؟

كانت بيوت الياسير من أهل القاهرة تشتمل على حظيرة للأنعام ، وكان هذا يلاحظ فى تخطيط البيوت ، فهل ترجع هذه النزعة السليمة ، ولو فى البيوت التى تقام فى الضواحى ؟

وكان الفرن ملحوظاً فى كل بيت ، ثم تمدّنا فكانت العاقبة أن نعانى ذمم الخبازين !

وكانت أكثر البيوت فى القاهرة تنتظر زادها « الصانج » من خيرات الريف يوم كان للقاهريين صلات بالريف ، وقد انقطعت تلك الصلات بفضل التمدن الحديث

أما بعد فإنى أنا مما أريد ؟

أنا أدعو إلى تقوية الذاتية فى كل فرد ، وإلى تمجيد كل مهنة ، وإلى احترام كل جهاد فى سبيل الرزق الحلال .

أنا أدعو العمال الذين ينقلون الأحجار إلى الفرح برؤية المبانى الشواهق ، لأن لهم يداً فى رفع البناء .

وأدعو الكناسين إلى الفرح برؤية الأسحاء ، لأن لهم يداً

فى دفع ما يحمل الغبار من أوباء . وأدعو عمال المطابع إلى الفرح بنهضة مصر العلمية ، لأن لهم يداً فى إبراز نفائس المؤلفات

الحياة الطيبة هى الحياة التى يسودها الرضا والابتهاج ، وفى مقدور كل فرد أن يحيا هذه الحياة ، لو سكت الكتّاب المتحذلقون فلم يبغّضوا الحياة إلى الأحياء

هل تتوهمون أن السعادة لا تكون إلا من نصيب من يرتادون الملاهى أو يملكون البيوت والسيارات والفدادين ؟

لو عرف الفلاح المجاهد فى سبيل القوت أنه يُغنى أمته قبل أن يغتنى لشعر بسعادة تفوق الوصف . ولو عرف الخادم أنه يساعد بأمانته على تجميل الحياة لأدرك أنه من السعداء

هل توجد فى الدنيا مهنة حقيرة ؟ لا ، وإنما يوجد فى الدنيا حقراء ، وهم الذين يريدون أكل العيش بلا جهاد .

ثم أما بعد فهذا درس فى الأخلاق التى نرجو أن تسود فى هذا الجيل وهو درسٌ أرحته القصة الآتية :

كنت أسير فى أحد البلاد ومعي رجلٌ متعلم له وظيفة ملحوظة فى الريف ، فرأينا جماعة من الفلاحين يجاهدون فى نقل « عدّة وابور » مياه ، فتنهد ذلك المتعلم وقال : أنظُر كيف يشقى الفلاحون !

ثم بالغ فى التنهد إلى أن خِفت على عينيه من الدمع

عند ذلك قلت : ومن ينقل هذه « العدّة » إذا تخلى عنها هؤلاء الرجال الأشداء ؟

فقال : هذه الحكومة تسمى نفسها حكومة الشعب ، ومع ذلك لا تحمى هؤلاء المساكين من هذه الأثقال

فقلت : وهل ترى من واجب حكومة الشعب أن تحمى الشعب من الجهاد فى سبيل الحياة ؟

وطالت اللجاجة بيني وبين ذلك « المتعلم » ، وانتهى الأمر بأن زاد اقتناعه بأنى عدو الفلاحين

لو كان ذلك المتعلم من أرباب الأذواق لوجد فى ذلك المنظر فرصة لنظم قصيدة يمجّد بها النشاط المصرى ، النشاط الموروث عن الآباء والأجداد ، فالفلاحون المصريون هم أقوى الفلاحين فى الدنيا بلا استثناء ، ولو اشتركوا فى مصارعة دولية لكانوا الفائزين .

ما العيب فى أن يعاني الفلاحون عرق الجبين ؟

وما العيب فى أن لا يعرفوا غير الفؤوس والمحاريث ؟

وما العيب فى أن يمشوا حفاة الأقدام ؟

وما العيب فى أن يكونوا شُعثاً لا زينة لهم غير كرم النفوس ؟

هل تعرفون السعادة التى يشعر بها الفلاح وهو يوصى أهله بأن يوقظوه قبل الشروق ليدرك صلاة الصبح ؟

هل تدركون فرح الفلاح بقدوم شهر الصيام ؟

كان فى مصر فلاحة وكان فيها فلاحون ، واليوم عرفتْ مصرُ أو عرف بعض كتابها أن حياة الفلاح بؤس فى بؤس ، وأن الواجب تنبيهه إلى ما خفى عليه من الشقاء والعناء

أنا عدوّ الفلاح ، ولكن أى فلاح ؟

أنا عدو الفلاح الذى يصدّق ما يسمع أو ما يقرأ فى النهوين من شأن الريف

أنا عدو من يجهل نعمة الله عليه ، والله قد أغدق نعمه على جميع الأحياء ، فمتى نشكر الله على نعمه السوابغ ؟ ومتى نعرف أننا لم نوفه حقه من الثناء ؟

زكى مبارك

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات (الرسالة) مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ١٠٠ قرش ، و ١٠٠ قرش عن كل سنة من السنوات : الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة فى مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدره خمسة قروش فى الداخل وعشرة قروش فى السودان وعشرون قرشاً فى الخارج عن كل مجلد .